الطعام في تلك الايام كان بالغ الاهمية في حياتي . لم اكن افكر في اي شيء آخر . كان كأن الطعام هو انشغالي الكامل الوحيد . قد لا اكون قلقت كثيرا حول عدم الذهاب الى المدرسة ، وحول حلق رأسي مرة كل شهرين لاوفر فواتير الحلاقين ، وحول المشيء حافي القدمين ، وحول عدم اكل المغربية ، وارتداء ملابس جديدة او تلقي علاوة خاصة خلال العيد ، لكن الطعام شغل علي حياتي . ومنذ البارحة ــ الكعك ، واقول ذلك لأبي .

كنت قد صعدت التلة لاشاهد مباراة محلية في كرة القدم مع فتى لبناني من الجوار . كان يحمل معه كيسا بنيا من الورق ، وفيما جلسنا لنراقب المباراة ، فتح الكيس واخرج منه قطعة من الكعك . ونظرت اليها واليه . لم ار ابدا شيئا مثلها منذ زمن طويل . ولم اشعر قبل ذلك ابدا ، او منذ ذلك الحين ، بأي شيء في حياتي كما شعرت بمثل تلك الرغبة الشديدة اليائسة التي رغبت بها في قطعة من تلك الكعكة . فقد بدت لي لذيذة ، طيبة ، غنية . واردتها باتقاد كاد يكون شهوانيا في قوته .

وفعلت كل شيء ليعطيني ذلك الفتى قطعة منها ، سوى ان اطلب منه ذلك . **هل خبزت امك هذه الكعكة ؟** نعم . **تبدو حقا طيبة ، اليس كذلك ؟** نعم . ويأكل ويتجاهلني . **تبدو طيبة ولا بد ان يكون طعمها طيبا .** نعم . وطوال الوقت اقاوم دافعا لأن امسك بالفتى من عنقه وانتزع منه ما اريده . ولكني كنت في العاشرة من عمري فقط ولم يمض على وجودي في الغربة سوى ثلاثة اعوام . لم اكن قد امضيت بعد قدرا كبيرا من الوقت في الشوارع . ولم اكن عنيفا كما تعلمت ان اصير فيما بعد في ثقافتي الشارعية . لذا اكتفيت بالجلوس هناك وبمراقبة المباراة بهدوء .

واذ اروي القصة لابي ، يصغي الي وعلى وجهه نظرة لا تعبير فيها ، وكأنه يحاول ان يقرر ما اذا كان يجب ان يكون غاضبا او حزينا . او ربما كان يتساءل فحسب لماذا يجب ان نكون القوم الوحيدين الذين لا يستطيعون الوصول ، حتى بطريقة صغيرة ، الى قطعة من الكعك هناك . ولماذا لم يكن لدينا شيء . ولم يدرك ، كما لم يدرك جميع الآخرين في تلك الايام ، ان اللاشيء في حياتنا هو الذي وضع الأساس لتأملاتنا التخريبية حول الكينونة والصيرورة .

ويقول ابي بغموض ، وبصوت مستو : « اننا فلسطينيون ، يا ابني ! » ولم اعرف ابدا ماذا عنى . احب ان اعتقد انه اراد ان يقول اننا كنا شعبا أبيا ، بمجموعة ابية من التقاليد . وقد يكون عنى اننا كفلسطينيين كنا فقراء وعاجزين وغير مرغوب فينا وبالتالي لا يجب ان نتوقع غير قرابة من النوع الثقيل الوطأة مع هؤلاء الذين يحيطون بنا . ومهما كان الامر ، وسواء كان انانية مثالية او بتر النفس ، فقد كان زادا من الطاقة كنت قد ابتدأت التقطه ، من حولي ، من حقيقتي الفلسطينية ، وافسره ليعني شيئا واحدا : كنا الآخر .

بالطبع كانت آخريتنا مصدرا لعلتنا بقدر ما كانت مصدرا لقوتنا . ولاجئية ابي . فتلك ايضا كانت جزءا من ميثولوجيا جيلي ، جزءا من عمليتي الخاصة للتحويل الذاتي . اذ انها خلقت اوضاعا لنقيضها في جيلي .

بعد ذلك بسنة او سنتين اكون في الشوارع . فأي مكان آخر كان هناك لأذهب اليه ؟ لم يكن